**الكلام في القرآن هل هو حرف وصوت؟**

***بحث فى : توحيد الصفات***

 *إعداد / أيمن محمد أبوبكر*

*قسم الدعوة وأصول الدين*

*كلية العلوم الإسلامية – جامعة المدينة العالمية*

*شاه علم - ماليزيا*

*ayman.abobakr@mediu.ws*

**خلاصة هذا البحث فى : الكلام في القرآن هل هو حرف وصوت؟**

**الكلمات الافتتاحيه : سئل، كلاما، بصوت**

* **.*المقدمة***

**الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين ، سوف نقوم في هذا البحث بمعرفة الكلام في القرآن هل هو حرف وصوت؟**

* ***. موضوع المقالة***

وقد سئل شيخ الإسلام عن القرآن هل هو حرف وصوت؟ فأجاب بأن إطلاق هذا الجواب نفيًا وإثباتًا من البدع المولدة، الحادثة بعد المائة الثالثة، ثم قال: والصواب الذي عليه سلف الأمة كالإمام أحمد والبخاري صاحب (الصحيح) في كتاب (خلق أفعال العباد)، وغيره، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم، أتباع النصوص الثابتة، وإجماع سلف الأمة: هو أن القرآن جميعه كلام الله حروفه ومعانيه، ليس شيء من ذلك كلامًا لغيره، وأن الله يتكلم بصوت كما جاءت به الأحاديث الصحاح. وهذا من دقة السلف -رحمهم الله- في مسائل العقيدة، وخاصة ما يتعلق منها بالله وصفاته؛ حيث إنهم لا يبتدعون كلامًا جديدًا، بل يصفون الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ، ولما لم يرد إطلاق أن القرآن بحرف وصوت لم يُطلقوه عليه كما يفعله البعض، وإنما يقولون: القرآن كله حروفه ومعانيه كلام الله، كما يقولون: إن الله نادى موسى، والنداء لا يكون إلا بصوت، والرسول  ذكر أن الله ينادي بصوت، ومن المعلوم أن الكلام إذا أطلق فإنه يشمل الحروف والمعاني، وهذا هو الذي فهمه السلف من صفة الكلام لله -تبارك وتعالى- على ما يليق بجلاله وعظمته.

ولكن لما وُجد في أهل البدع من ينكر الحرف والصوت، لينكر كلام الله، بين السلف أن كلام الله شامل للحروف والمعاني، وأنه تعالى يتكلم بصوت كما يصفونه بما ورد من التكليم والمناداة والمناجاة. وقد وردت نصوص فيها ذكر الحرف في كلام الله، وهو القرآن، ومن ذلك حديث: (( إن الله يأمرك أن تُقرئ أمته القرآن على حرف))، وحديث ((أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأها بحرف منهما إلا أعطيته))، وحديث ((أقرأني جبريل على حرف))، وحديث ((إن هذا القرآن أنزل على سبع أحرف))، وحديث ((من قرأ حرفًا من كتاب الله)) وغيرها، وقد اتفق الأشاعرة على أن كلام الله تعالى ليس بحرف ولا صوت، ولهم شبهات وهي:

الشبهة الأولى: قالوا: إن الحروف متعاقبة يعقب بعضها بعضًا، وكذلك الأصوات، فلو كان كلام الله بحرف وصوت؛ لكان حادثًا، والله منزَّه عن الحوادث، فلزم أن يكون كلامه بلا حرف ولا صوت.

والجواب:

1. تعارض الأشاعرة هنا بما سبق أن أورد عليهم في صفات الأفعال، إذ يلزمهم القول بقيام صفة الاختيارية بذات الباري، وهم يسمون مثل هذا بحلول الحوادث. ووجه الإلزام أنه ما من شك أن كل مخلوق فهو كائن في وقت مخصوص بعد أن لم يكن فيقال عندئذ: ما الذي أوجب حدوثه في ذلك الوقت المخصوص، فإن قالوا: الإرادة الأزلية هي التي خصصت ذلك فيقال لهم: إن الإرادة الصالحة لذلك أزلًا، فما من وقت يقدر إلا والإرادة صالحة لإيجاده فيه، قالوا: إن الإرادة وإن كانت صالحة أزلًا للتخصيص إلا أنها تعلقت تنجيزيًّا في وقت مخصوص بذلك المخلوق المراد، فيقال لهم: هذا التعلق إن كان شيئًا عدميًّا فهو ليس بشيء، فلم يحدث شيء إذًا، فيلزم عدم وجود شيء أصلًا، وإن كان التعلق وجوديًّا فهذا هو الفعل الاختياري الذي فررتم منه، فصح إذًا أن الله يفعل ما يشاء متى يشاء، فإذا ثبت هذا كان لا محذور من وجود التعاقل في الكلام.

ثانيًا: ثم إن قولهم يلزم من قوله بالتعاقب والحدوث، وإن كل حادث فهو مخلوق، فقول لا يسلم فيهم؛ إذ هذا الكلام مبني على القياس الشمولي، وهو لا يجوز في المطالب الإلهية، فإنه وإن ثبت تعاقبهم في الكلام لكن لا يلزم ثبوت المساواة والمفاسدة، بدليل أن الله -تبارك وتعالى- يتولَّى الحساب بين خلقه يوم القيامة في حالة واحدة، وعند كل واحد منهم أن المخاطب في الحال هو وحده، فثبت من هذا عدم تحقق المماثلة.

ثالثًا: وإيرادهم الذي ذكروه هو خلاف مجرد للأدلة الكثيرة كقوله تعالى: {ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ} [يس: 82]، ففي هذا الآية إثبات تعلق الكلام بالمشيئة، وعلقه بإذا الدالة على المستقبل.

الشبهة الثانية: قالوا: إن الحروف تحتاج إلى مخارج، الحرف واللسان والشفاة، ولا بد من استكاك الهواء بالمخارج ونحو ذلك ليحدث الصوت، وهذه صفات الخلق لا صفة الخالق؛ فوجب تنزيه الله عنها.

والجواب: قولهم إنه لا يُعقل حرف ولا صوت إلا بمخارج منطوق بتكلم السموات والأرض، {ﯮ ﯯ ﯰ} [فصلت: 11]، وتكلم الجوارح {ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ} [فصلت: 21] إلى غير ذلك مما تواتر نقله، فإذا بطلت هذه المقدمة فسدت النتيجة، ويجاب عليهم تاليًا بأن هذا قياس للخالق على المخلوق، وهو ممنوع كما قال الله تبارك وتعالى: {ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ} [الشورى: 11]، ويلزمهم على قولهم ما أوردهم عليهم المعتزلة، من أنه يلزم من إثبات صفة البصر إثبات ما للخلق من الحدقة وغيرها، وهم لا يسلمون بلزوم هذا الاشتراك، فلزمهم كذلك.

الشبهة الثالثة: قالوا: إذا قلتم إن الحروف والأصوات قديمة، لزم أن يكون كل كلام قديمًا كذلك، وإذا قلتم: إنها حادثة رجع الكلام إلى ما قلناه أولًا، وإذا قلتم: إن كلام الله بحروف وأصوات قديمة، وإن الخلق يتكلمون بحرف وصوت حادث؛ يجب أن يكون ما في المصحف ليس كلامًا لله؛ لأنه مكتوب بحروف حادثة، وإذا قرئ بصوت حادث كذلك.

الجواب: لا يلزم إذا قلنا: إن صوت الباري وحروفه غير مخلوقة أن تكون كل الأصوات والحروف غير مخلوقة؛ لأن الصوت الذي يحصل به إنشاء الكلام ليس مثل الصوت الذي يحصل به أداؤه وتبليغه يوضحه الآتي:

لو أن شخصًا أنشد شعرًا لأحد فحول الشعراء كلبيد مثلًا، فإنه يقال: إن الشعر شعر لبيد الذي تكلم به بصوته، إلا أن هذا الشخص أداه بصوته وهو فعله، وليس صوت هذا الشخص هو صوت لبيد، وهذا معلوم وضرورة. فإذا عُلم هذا الفرق بين المخلوقين فأولى أن يكون هذا الفرق بين الخالق والمخلوق ثابتًا. وما قيل في الصوت يقال في الحرف، ولا يجوز إطلاق القول بأن الحروف قديمة؛ ذلك لأن الحروف صفة للكلام، فهي وإن كانت واحدة بالنوع إلا أن أعيانها ليست كذلك، والكلام إذا أطلق لا يكون إلا بحرف وصوت، فكلام الله ما قام به وهو ليس مخلوقًا ففي هذه الحالة لا تكون الحروف مخلوقة، وأما كلام الخلق فهو ما قام به وهو مخلوق؛ إذ هو صفة لهم فحروفهم وأصواتهم إذًا مخلوقة.

وأما قولهم: إن المصحف مكتوب بحرف حادث وإذا قرئ بصوت حادث؛ فيلزم أن يكون ما في المصحف ليس كلامًا لله فجوابه: إن الحروف تطلق ويراد بها الصوت المقطع، وقد يُراد بها المداد أو شكله. ولا شك أن المداد مخلوق وشكله كذلك؛ إذ هو فعل للإنسان، ولكن لا يلزم من هذا أن يكون ما في المصحف ليس كلامًا لله يوضحه أن الأشياء إما أعيان قائمة بذاتها أو أشياء قائمة بالأعيان، فالأشياء القائمة بنفسها وهي الأعيان كالسماء لها أربعة مراتب: وجودها الخارجي بنفسها، ووجودها الذهني، ووجودها اللفظي اللساني، ووجودها الرسمي الكتابي.

ولا شك أن كل مرتبة تختلف عن الأخرى، أما الأشياء التي لا تكون قائمة بنفسها وإنما تقوم بغيرها فهذه قد تكون لها المراتب الأربعة المذكورة سابقًا، كالألوان، وقد تكون لها ثلاث مراتب فقط كالكلام، فله وجود خارجي، وهو ما قام باللسان، ووجود ذهني هو ما قام بالقلب، ووجود رسمي وهو ما ظهر بالكتابة، وعليه فإن المرتبة اللفظية للكلام هي المرتبة الخارجية عينها، ولذلك فإن كلام الله غير مخلوق حيث ما تصرف، فإذا كُتب كان هو كلامه، وأن الحبر والمداد وشكله فمخلوق وإذا قرئ فسمع كان المسموع كلامه مسموعًا من المبلغ عنه، لا مسموعًا من الله. ثم فيما يلي أربعة إلزامات على الأشاعرة في قولهم: "إن كلام الله بلا حرف وصوت" موجهة إليهم بطريقة السؤال:

الإلزام الأول: إذا كان الكلام نفسيًّا بلا حرف ولا صوت، فما الذي سمعه موسى #. أجابوا بأن الله أزال عنه الحجاب وأسمعه الكلام القديم، ثم أعاد الحجاب، وهذا القول صريح منهم بأن الله تعالى لا يتكلم، وإنما الذي فعله هو رفع الحجاب، ورفع الحجاب ليس تكليمًا، وقد أكد الله أنه تكلم فقال: {ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ}، فأكد قوله بالمصدر؛ ليفيد الحقيقة.

ثم إنه يقال لهم: ما شفيتم عليلًا إذ فررتم من الحقيقة، وهي هل يمكن سماع غير الأصوات؟ وهنا اضطربوا فالتزام الغزالي أنه سمعه بلا حرف ولا صوت، كما أنه يرى في الآخرة بلا كم ولا كيف، وهذه الموازنة غلط بيِّن؛ إذ هو قد أثبت رؤية ذاته ولم يلتزم أن تكون ذاته ذات كم وكيف؛ فكان عليه أن يثبت صوتًا لا يشبه أصوات الخلق كما وازن، وإلا فلا فائدة في موازنته ولا مناسبة، مع أن استعماله لتلك العبارات لم يكن معروفًا عند السلف.

وأيضًا فإنه لم يأتِ ببرهان يفيد أنه يمكن سماع غير الأصوات، فلجأ إلى أن ذلك عن طريق خرق العادة، ولم يأتِ ببرهان على ما ادعاه، بل ناقد صريح الآية في تكليم الله تعالى لموسى  كما تقدم قريبًا، والتزم الإسفراييني أن موسى # سمع صوتًا تولى الباري خلقه من غير كسب للعباد قلت: وهذا رجوع صريح لمذهب المعتزلة.

ولهم قول ثالث: وهو أنه سمعه بصوت من جميع الجهات على خلاف ما هو العادة، ولم يبينوا أن الصوت الذي سمعه هو صوت الباري أم لا. والذي يظهر أنهم لا يثبتونه صوتًا للباري، لأنهم اتفقوا على أن كلامه نفسي فقط، والفرق بين هذا القول والقول الثاني هو أن القول الثاني خص الصوت المخلوق بجهة معينة، والقول الثالث لم يخص الصوت المخلوق بجهة معينة، وهذا كله محض افتراء وتمويه، والتزام لجهالة؛ إذ القول الثالث مآله إلى أن الكلام لم يقم بالمتكلم أصلًا، وهو مع ذلك مناقض للآية في تحديد جهة الكلام التي سمع منها موسى  كلام الله بلا واسطة قال تعالى: {ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ} [القصص: 30].

الإلزام الثاني: وهو إذا كان الكلام نفسيًّا فقط بلا حرف ولا صوت، فما الفرق بين مراتب الوحي الثلاث، وبتعبير أوضح: ما مزية موسى  الذي اصطفاه الله بكلامه على ما سمع الوحي بواسطة الملك، أو كان إلهامًا، وليس لهم جواب يشفي في هذا الموضوع، فغاية ما قالوه هو قول الباقلاني: إن الله تعالى يسمع كلامه خلقه على ثلاث مراتب: تارة يسمع من شاء كلامه بغير واسطة، لكن من وراء حجاب، ونعني بالحجاب للخلق، ولله الحق كموسى # أسمعه كلامه بلا واسطة، لكن حجبه عن النظر إليه.

وتارة يُسمع كلامه من شاء بواسطة مع عدم النظر والرؤية أيضًا من ملك أو رسول، أو قارئ.

وتارة يسمع كلامه من شاء من الخلق بغير واسطة ولا حجاب كتكليمه لنبينا  ليلة المعراج، وهذا كله مع التزامه بنفي الحرف والصوت، فظهر أن تقسيمه السابق لم يفيد شيئًا.

الإلزام الثالث: إذا كان الكلام نفسيًّا بلا حرف ولا صوت وإنما هو شيء قديم، فما الفرق بينه وبين الإرادة والعلم، وليس لهم إلا أن يقولوا: إن تعلق الكلام تعلق دلالة، وتعلق العلم تعلق انكشاف، وتعلق الإرادة تعلق تخصيص بالمراد، وأيضًا فإن دليل الكلام السمعي والإرادة والعلم العقلي، وإن المعنى لغة لكل واحدة يختلف عن الأخرى.

والجواب: أنه إذا رجعتم إلى اللغة؛ لزمكم أن تثبتوا الصفات كما دلَّ على ذلك الوضع اللغوي، ففي اللغة لا يُفهم المتكلم إلا من قام به الكلام، وتكلم به حقيقة، وإن كانت الحقائق تختلف بين الخالق والمخلوق، والتفريق بين الصفات من حيث نوع الدليل فيه اضطراب واضح؛ إذ إنه لا يمكن إقامة الدليل على شيء معين إلا بعد تصور ذلك الشيء المعين، وأن الدليل يدل عليه، وعن من يتصور شيئًا من ذلك على وجه سوى أنهم قالوا: "إن تعلق الكلام تعلق دلالة، ولم يلتزم هذا في تعريف الكلام بأنه يقول بحرف وصوت، فأين الدلالة؟".

الإلزام الرابع: إذا كان الكلام بلا حرف ولا صوت يقوم بالمتكلم، فما المراد بالخرس؟ أجابوا: بأن الخرس آفة باطنية تمنع من الكلام النفسي، وهذا الجواب في غاية السقوط، فهم لم يعرفوا الخرس كما هو في اللغة، ويلزمهم على هذا أن يقولوا: إن الأخرس متكلم، لأنه لا شك متصور للكلام إلا أنه قامت به آفة فلم يتكلم كلامًا مسموعًا، وفي هذا فرق واضح للحقائق اللغوية والشرعية.

وكل هذا التزموه لاختراع قولًا لم يسبقوا إليه قط لا من السلف، ولا من المبتدعة قبلهم، وفي هذا يقول الإمام الحافظ وأبو نصر السجزي؟: "لم يكن خلاف بين الخلق على اختلاف لحالهم من أول الزمان إلى الوقت الذي نرى فيه ابن كلاب والقلانسي، الأشعري، وأقرانهم، في أن الكلام لا يكون إلا حرفًا وصوتًا ذا تأليف واتساع، وإن اختلفت به اللغات، وقد نقل الشهرستاني قولًا قريبًا من هذا، ولم يتعقبه بشيء، مما يدل أنه قد أقرَّ بخرق الأشاعرة بالإجماع.

**المراجع والمصادر:**

1. **تقي الدين أحمد عبد الحليم بن تيمية ، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب/ عبد الرحمن بن قاسم، المدينة المنورة، طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف, عام 1416هـ.**
2. **علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق د/ عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، بيروت، الطبعة العاشرة مؤسسة الرسالة، 1417هـ.**
3. **محمد بن خليفة التميمي ، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى ، الرياض، مكتبة أضواء السلف الطبعة الأولى، 1419هـ.**
4. **محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ،الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الرياض، دار العاصمة، 1998م.**
5. **محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، دار الكتب العلمية, 2003م.**
6. **هبة الله بن الحسن اللالكائي ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق ، أحمد سعد حمدان، الرياض، دار طيبة، 1982م.**
7. **محمد بن إسحاق بن خزيمة ، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ، تحقيق: عبد العزيز الشهوان، الرياض، دار الرشد للنشر والتوزيع،1987م.**
8. **محمد ناصر الدين الألباني ، مختصر العلو للعلي الغفار ، المكتب الإسلامي، 1980م.**
9. **محمد بن صالح بن عثيمين ، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، تحقيق: أشرف عبد المقصود، القاهرة، مكتبة السنة، 1993م.**
10. **إبراهيم البريكان ، القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف ، الدمام، دار ابن القيم، 2004م**
11. **عمر سليمان الأشقر ، الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة، الأردن، دار النفائس للنشر والتوزيع، 1992م.**
12. **أحمد عبد الرحمن القاضي ، مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات "عرض ونقد"، الرياض، دار العاصمة، 1995م.**
13. **عبد الرحيم السلمي ، حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين، الرياض، دار المعلمة للنشر والتوزيع، 2000م.**